(٣٤)

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله).

ش: قال الإمام أحمد: ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعًا من كتابه. وفي الحديث الصحيح: «**الصبر ضياء**»[(١)] رواه أحمد ومسلم.

وللبخاري ومسلم مرفوعًا: «**ما أعطى أحد عطاء خيرًا أوسع من الصبر**»[(٢)] قال عمر رضي الله عنه: وجدنا خير عيشنا بالصبر رواه البخاري.

قال علي رضي الله عنه: (إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - ثم رفع صوته - فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له).

واشتقاقه: من صبر إذا حبس ومنع. والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما. ذكره ابن القيم رحمه الله.

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى عنه، وصبر على ما قدره من المصائب.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١)].

ش: وأول الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن:١١]أي بمشيئته وإرادته وحكمته، كما قال في الآية الآخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]قال ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

---

(١)أخرجه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء، حديث (٢٢٣)، والترمذي، حديث (٣٥١٧)، وابن ماجه، حديث (٢٨٠)، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٤٢)، حديث (٢٢٩٥٣).

(٢)أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، حديث (١٤٦٩)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر، حديث (١٠٥٣).

[التغابن: ١١] إلا بأمر الله يعني عن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] أي من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينًا صادقًا. وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١] تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته. وذلك يوجب الصبر والرضا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم).

ش: هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وعلقمة: هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي. ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم. وهو من كبار التابعين، وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين.

قوله: (هو الرجل تصيبه المصيبة) إلخ. هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان. قال: كنا عند علقمة فقرئ عليه هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. هذا سياق ابن جرير، وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] يعني يسترجع. يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلوب وأنها من ثواب الصابرين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت» [(١)]).

ش: أي هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ورزقه علمًا وإيمانًا يستضيء به. لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافرًا كالكفر المطلق. كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا الإيمان المطلق. وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله: «ليس

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، حديث (٦٧).

بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة» [١] وبين كفر منكر في الإثبات.

قوله: (الطعن في النسب) أي عيبه، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

قوله: (والنياحة على الميت) أي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت، لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: وا عضداه، وا ناصراه، ونحو ذلك.

وفيه دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية» [٢]).

ش: هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب.

قوله: (من ضرب الخدود) وقال الحافظ: خص الخد لكونه الغالب وإلا فضرب بقية الوجه مثله.

قوله: (وشق الجيوب) هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزنًا على الميت.

قوله: (ودعا بدعوى الجاهلية) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: هو ندب الميت [٣]. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور. وقال ابن القيم رحمه الله: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي، فكل هذا من دعوى الجاهلية، وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور [٤].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، حديث (٨٢) عن جابر مرفوعًا بلفظ: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة».

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب، حديث (١٢٩٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، حديث (١٠٣).

(٣) نَدَبَ الميت: بكى عليه وعدَّد محاسنه. انظر مختار الصحاح ص (٢٧١).

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب: ماجاء في الجنائز، باب: ما جاء في النهي عن ضرب الخدود وشق الجيوب، حديث (١٥٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٢٧)، حديث (٣١٥٦)، وهو صحيح، وانظر صحيح الترغيب (٣٥٣٦)، الصحيحة (٢١٤٧).

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا وليس على وجه النوح والتسخط نص عليه أحمد رحمه الله، لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضي الله عنهما لما توفي رسول الله ﷺ.

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء، لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: **«تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»** (١).

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت، فرفع إليه ونفسه تقعقع كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: **«هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»** (٢).

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة»** (٣)).

ش: هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم وحسنه الترمذي. وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن مغفل وأخرجه ابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار بن ياسر.

قوله: (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا) أي يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها. وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون...-، حديث (١٣٠٣)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال، حديث (٢٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته لقول الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] ، حديث (١٢٨٤)، ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت، حديث (٩٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٥١)، حديث (٨٧٩٩)، وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٣٠٨)، الصحيحة (١٢٢٠).

فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا. وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة، كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق والله تعالى محمود عليها.

فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧] وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات. فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك انتهى ملخصًا.

قوله: (وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه) أي أخر عنه العقوبة بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بحتى مبنيًّا للفاعل.

قال العزيزي [(١)]: أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفي الذنوب وافيها، فيستوفى ما يستحقه من العقاب، وهذه الجملة هي آخر الحديث.

فأما قوله: وقال النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**» إلى آخره فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه: التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء. وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» [(٢)] **حسنه الترمذي)**.

---

(١) هو: علي بن أحمد بن محمد بن إبراهيم العزيزي، البولاقي، الشافعي. له مصنفات كثيرة منها: السراج المنير شرح الجامع الصغير، الفوائد، وهي حاشية على شرح الغاية لابن قاسم. توفي سنة (١٠٧٠هـ).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٦)، وابن ماجه، حديث (٤٠٣١) وهو حسن، وانظر صحيح الجامع (٢١١٠)، صحيح الترغيب (٣٤٠٧)، الصحيحة (١٤٦).

ش: قال الترمذي: حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس، فذكر الحديث السابق.

ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن عظم الجزاء...**» الحديث. ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

ورواه ابن ماجه. وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع**»[1] قال المنذري: رواته ثقات.

قوله: (إن عظم الجزاء) بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمها مع سكون الظاء. أي من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار.

فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: (وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم) ولهذا ورد في حديث سعد: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»[2] رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه.

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى.

فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٧)، حديث (٢٣٦٧٢)، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٤٥)، حديث (٩٧٨٤) وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (١٧٠٦)، صحيح الترغيب (٣٤٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٨)، وابن ماجه، حديث (٤٠٢٣)، وأحمد في مسنده (١/ ١٧٢)، حديث (١٤٨١)، والدارمي في سننه (٢/ ٤١٢)، حديث (٢٧٨٣) وهو صحيح، وانظر صحيح الترغيب (٣٤٠٢).

بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

قوله: (فمن رضى فله الرضا) أي من الله تعالى، والرضاء قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل: فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر.

والرضا: هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا محبة لله وثقة به، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

قوله: (ومن سخط) وهو بكسر الخاء.

قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به. أي من سخط على الله فيما دبره فله السخط، أي من الله، وكفى بذلك عقوبة.

وقد يستدل به على وجوب الرضا وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه. قال: وأما ما يروى: من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربًّا سواي [1]. فهذا إسرائيلي لم يصح عن النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها. اهـ والله أعلم.

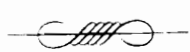

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢٠)، حديث (٨٠٧)، وابن حبان في المجروحين (١/ ٣٢٧)، من طريق سعيد بن زياد حدثني أبي زياد بن فائد عن أبيه فائد بن زياد عن جده زياد بن أبي هند عن أبي هند الداري مرفوعًا. وسعيد بن زياد متروك وانظر مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٧)، وضعيف الجامع (٤٠٤٥)، الضعيفة (٥٠٥، ٧٤٧).